

باب الاصول والعقائد

﴿ فاتحة كتاب محاورات المصلح والمقلد ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

فَبَشِّرْ عِبَادِيَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ * (سورة الزمر - ٣٩ : ١٨)

اللهم اجعلنا من عبادك المهادين المهديين ، واجعلنا من الأئمة الوارثين ، الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وصل وسلم اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين ، ومن تبعهم بهديهم الى يوم الدين ، وبعد فان الله تعالى جلت حكمته ، وعلت كلمته ، ووسعت كل شيء رحمته ، قد أرسل الرسل وأنزل الكتب لهداية الناس واصلاح شأنهم في معاشهم ، واعدادهم للسعادة في معادهم ، وقد مضت سنته في البشر ان يرتقي نوعهم بالتدريج كما يرتقي أفرادهم من طفولية الى تمييز الى رشد وعقل . لذلك جعل خطاب الرسل لهم في كل طور على حسب استعدادهم نفاطهم طورا بما يناسب مدركات الحس ، وطورا بما يناسب وجدان النفس ، وحملهم أولا على الطاعة بالقهر والالزام ، وجذبهم اليها ثانيا بالاقناع وضرب الأمثال . حتى اذا ما ارتقت عقولهم بتقلب الزمان ، واستعدوا لتحكيم العقل في مدركات الحس والوجدان ، بعث فيهم خاتم النبيين والمرسلين ، الذي جعل الفكر والنظر أساس الدين ، نبي جاء بالبينات والهدى ، وكتاب نهى عن التقليد واتباع الهوى ، وعظم شأن العقل وجعله

هو المخاطب بفهم النقل ، فامتاز دينه على سائر الأديان ، بأنه دين الحجة والبرهان ، الناعي على متبعي الاوهام الظنون ، بأنهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ، بل وصفهم بمثل قوله « صَمٌّ بِكُمْ عُمِّي فَهَمُّ لَا يَرَجِعُونَ » وقوله « إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أَوْلَىٰ لَكَ هُمْ الْغَافِلُونَ »

كتاب احتج على ضخمة العقائد بآيات الله في الأتفس والآفاق ، وبين فوائد مادعا اليه من العبادة ومكارم الاخلاق ، وأشار الى مصالح الناس فيما شرعه من الأحكام والسنن ، ونبه على مفاسد ما حرمه عليهم من المنكرات والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فهدى الناس بذلك وبدعوتهم الى ان يكونوا على بصيرة في دينهم وعلى بينة منه وبجعله دين الفطرة وبنفي الجرح والاعنات عنهم فيه وبجعله يسراً لا عسراً وبالالاكتفاء منهم بما يستطيعون منه وبتقرير غناه سبحانه عن العالمين - هداهم بذلك كله الى انه ينبغي لهم بل يجب عليهم ان يفقهوا حكمة جميع ماخو طبوا به ووجه كونه مصلحة لهم ووسيلة لسعادتهم وتركه مدرجة لتسادم وشقوتهم (١٢ : ١٠٨ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ صِدْقٍ أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي) ووصف من اتبعه بقوله (٢٥ : ٧٣ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهَا ذُمًّا وَعُيُوبًا)

ان ديناً هذا شأنه يعلو عن أن يكون مهياً للأهواء ، أو مثاراً لاختلاف الآراء ، أو مجالا لتحزب العلماء ، أو آلة لسطان الرؤساء ، فهو الحنيفة السمحة ليلاً كنهارها كما ورد عن صلى الله عليه وسلم (٦ : ١٥٣ وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

يَكُفِّرُ عَنْ سَيِّئِهِ، ذَاكُمُ وَصَاكُمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (ثم قال في هذه
السورة (١٥٩) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ
إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) وقال في سورة آل عمران
(٣: ١٠٣) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) الآية ثم قال بعد آية
أخرى منها (١٠٥) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) وقال عز وجل (٣٠: ٣٠) فَأَقِمْ وَجْهَكَ
لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ
الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣١ مُبِينًا إِلَيْهِ وَآتَوْهُ وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٣٢ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا
شِيَعًا كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) وثم آيات أخرى في التفسير عن
التفرق والخلاف

ماذا كان من أمر الذين ينتسبون الى هذا الدين؟ هل ظلوا على
البصيرة في دينهم أم تركوها الى التقليد واتباع الآراء وخرروا عليها صما
وعمياناً؟ هل استقاموا على الصراط المستقيم سبيل الله أم اتبعوا السبل
الكثيرة فتنفقت بهم عن سبيله؟ هل ظلوا أمة واحدة محافظة على أخوة
الدين أم فرقوا دينهم وصاروا شيعاً كل شيعه تعادي الأخرى لمخالفتها
اياها في المذهب، ومباينتها فيما أحدثت من المشرب؟

إذا كان الخلاف طبيعياً في البشر، وكان أقوى سائق لهلاك الأمم
إذا تبادت شيع الأمة فيه ولم تعالجه بعلاجه فلماذا لا يرجع المسلمون في
كل خلاف يقع الى علاجه الذي بينه الله تعالى في قوله (٤: ٥٩) فَإِنْ

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) ؟

تمزق شمل المسلمين بتنازعهم السياسي الذمى تبعه التنازع الديني
ففرقوا شيعاً كل شيعه تتحل مذهباً تتخذ حجة لنفسها على سائر المسلمين
فكان ذلك حججاً باً دون رد ما تنازعوا فيه الى الله ورسوله بتحكيم الكتاب
والسنة فيه اذ جعلوا مذاهبهم أصولاً يرجعون اليها آيات الكتاب وأخبار
السنة بالتأويل وغير التأويل (كدعوى النسخ) . فعملوا ذلك لتقوية
السياسة بالدين فأضاعوا السياسة والدين ، وردوا الأمة أسفل سافلين ،
فخسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ،

أما خسرانهم للدنيا بسوء السياسة فبما أضاعوا من سيادتهم وسلطانهم
فان معظم شعوبهم وبلادهم قد استولى عليها الأجانب وما بقي منها في
أيديهم قد أوغلت السلطة الأجنبية في أحشائه، وهي تهدده بسلب ذمائه،
واما خسرانهم الآخرة فبما ابتدع جماهيرهم في الدين ، واتبعوا غير سبيل
المؤمنين الأولين ، وهي سبيل الله التي من اتبعها كان على بصيرة من
الله وبرهان ، وما هي الا هداية هذا القرآن ، الذي وصفهم بما لا ينطبق
على جماهير المتأخرين المختلفين ، ووعدهم فأثم بطاعتهم ما سلبه من
الخالقين الخالفين ،

اقرأ في التاريخ حوادث الفتن بين أهل السنة والشيعه والخوارج
بل بين المنتسبين الى السنة بعضهم مع بعض - بين الأشاعرة والحنابلة
بين الحنفية والشافعية بين الشافعية والحنبلية . . . انك ان تقرأ تجد

الجواب عما سألتك عنه ومن أغرب ما تجد أن العدوان بين الشافعية والحنفية كان من أسباب حملة التتار على المسلمين وحملهم على تدمير بلادهم تلك الحملة التي كانت أول صدمة صدعت بناء قوة المسلمين صدعاً لم يلتئم من بعده ويعد كما كان ، تلك الحملة التي يتأول بها بعض الناس خروج بأجوج وما أجوج ويقول انهم هم التتار

مالك ولمعرفة حال تفرق المسلمين من كتب التاريخ أو من كتب المذاهب ، أدر طرفك في بلادهم اليوم وانظر حال أهل هذه المذاهب على ضعف الدين في نفوس الجماهير تجد بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى كما قال الله تعالى في وصف من لا إيمان لهم ولا أيمان إلا من حفظ الله من أفراد متفرقين يتحملون الأذى في سبيل جمع الكلمة وإزالة الخلاف وإعادة الأخوة الدينية إلى ما كانت عليه في أول نشأة الدين أو إلى قريب من ذلك . بل تجد الحنفي في كثير من البلاد لا يصلي مع الشافعي بل تجد من أسباب الخلاف والعداء الشديد كون بعضهم يجهر بآمين وراء الإمام وبعضهم لا يجهر بها أو لا يقولها ، وكون بعضهم يرفع أصبعه عند الاستثناء في شهادة التوحيد وبعضهم لا يرفعه . مثل هذا الخلاف مما يجعل في بعض بلاد الهند فارقا بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال ، ولا غرو فهم عيال على الكتب التي تبحث في كفر من قال أنا مؤمن أن شاء الله كالسلفية والاشاعرة وتقول يجوز نكاح بنت الشافعي قياساً على الذمية !! « ٦٨: ٢٣ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » ألم يعلموا أن الله بأن يستخلفهم في الأرض كما استخلف

الذين من قبلهم ، وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وأن يبدل خوفهم بالآمن ، وأن لا يجعل للكافرين عليهم سبيلاً ؟ بلى ولن يخلف الله وعده وانعام الخلقون ، « ١١ : ١١٧ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مَظْلُومِينَ »

نعم انه لم يزل ولا يزال في هذه الأمة قوم ظاهرون على الحق كما ورد الوعد في الحديث ولكن هؤلاء لقتلهم أمسوا اغرباء كما جاء في حديث آخر وأي غربة أشد من غربة من يوصفون بالكفر والزندقة لانهم يقولون بوجوب اهتداء المسلمين بكتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ؟ ألم يكن في بني اسرائيل أمة يهدون بالحق وبه يعدلون اذ وصفهم بما وصفهم به من الاعراض عن كتابهم وتحريفه واذا أحل بهم ما أحل من عذاب السبي والاذلال ، وازالة الاستقلال ، ؟ بلى ولكن كان هؤلاء المحقون قليلين فليس لهم أمر يطاع ، ولا هدي يتبع ، فلا أثر لهم في الأمة فكانهم ليسوا منها أتى على الأمة الاسلامية حين من الدهر لم ينبغ فيها عالم الا وكان في طور كماله أو خاتمة أعماله يأمرها بالاهتداء بالقرآن واتباع سيرة السلف الصالح ونهايك بالامامين الجليلين حجة الاسلام الغزالي وشيخ الاسلام ابن تيمية ومن على شاكتهما ولكن السلطان كان مؤيداً لعلماء الرسوم وأهل التقليد لانهم آلة السياسة ، وأعوان الرياسة فكان صوت المصلحين بينهم خافتاً ، ومقامهم خافياً ، حتى اذا اشتهر لهم كتاب أحرق كما أحرق كتاب احياء علوم الدين ، أو رفع شجاع صوته بالدعوة التي في غيابة السجن كما فعلوا بشيخ الاسلام تقي الدين ،

ثم اشتد ضعف السياسة في هذا القرن على أهل العلم والدين في كل

بلاد يحكمها المسلمون فاستيقظ لشدة وطأتها أهل الاستعداد منهم وشعروا بشدة الحاجة الى الاصلاح قبل ان تجهز على الامة السياسة الفاسدة وطفقوا يتسمون ربح الحرية فوجدوها في مثل مصر والهند فأنشأوا يدعون الى الاصلاح والموفق ان شاء الله تعالى من بدأ بالدعوة الى الاصلاح الديني اذ عليه يتوقف كل اصلاح ، وهو مفتاح النجاح والفلاح ، لا اصلاح الا بدعوة ، ولا دعوة الا بحجة ، ولا حجة مع بقاء التقليد ، فاغلاق باب التقليد الأعمى وفتح باب النظر والاستدلال هو مبدأ كل اصلاح . وقد كتبنا في مجلة « المنار » التي أنشأناها بمصر في أواخر سنة ١٣١٥ مقالات كثيرة في بيان بطلان التقليد منها ما هو من انشائها ومنها ما نقلناه عن الامام العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى . من ذلك مقالات (محاورات المصلح والمقلد) التي نشرناها في المجلد الثالث والمجلد الرابع من المجلة وبيننا فيها طرق الاستدلال الصحيح ، وبطلان التقليد ، ووجوب البصيرة في الدين ، واتباع سبيل السلف الصالحين ، وطريق الوحدة الاسلامية ، في المسائل الدينية والسياسية والقضائية ،

كان لهذه المقالات أثر حسن في نفوس أهل البصيرة والفهم حتى كان بعض أساتذة المدارس يقرأ المقالة منها ست مرات . وقد اقترح علينا غير واحد من محبي العلم والدين ان نطبع هذه المحاورات في كتاب مستقل فأجبنا طلبهم وأضفنا الى المحاورات أسئلة في موضوعها وردت علينا من باريس مع أجوبة المنار عليها زيادة في الفائدة فنسأل الله تعالى ان يجعلها خدمة نافعة للمستعدين ، وعملاً خالصاً لوجه الكريم

(محمد رشيد رضا الحسيني)